محاضرة مقياس مدخل إلى الفلسفة العامة رقم 08

موضوع المحاضرة: أصل الفلسفة من العصر الوسيط إلى الآن

الفئة المستهدفة: طلبة سنة أولى جدع مشترك علوم اجتماعية

مدخل: تأصيل الفلسفة والفكر الفلسفي في عصورها الأولى طبعتها سمات مزجت بين اللاهوت والميثوس وكل ما يتوجب التروع صوب البيوس، وكانت سيرورة التفكير السمة الأبرز بين كل مناحي الفلسفة والتفلسف. وتعرف الفلسفة منعطفات حاسمة ابتداء من العصور الوسطى بظهور وضعيات ومقتضيات أخرى أحالت العقل الفلسفي على إثارة تساؤلات غاية في العمق والشمولية، وكانت السمة الأبرز ماثلة في جدلية العقل والنقل، لتتخذ منها العصور اللاحقة مرجعا لدراسات وابحاث إبستيمية اتخذت لها تمذهبات وتفريعات لا يسعنا حصرها لتشعب روافدها وتعدد مقاصدها.

01/ تأصيل الفلسفة في عصرها الوسيط: في حسّنا المشترك كما في ثقافاتنا المعهودة اعتدنا الحكم على فلسفة العصور الوسطى أحكاما قاسية لاعتبارات عدة بينها تمظهرات الخطاب الفلسفي الذي كان اغترابيا منغلقا، استلابي تسلطي، نتج عنه جهل وتجهيل مؤسس أسر العقل وجمد روح التفكير فغض عنه النظر كذا بعض مؤرخي العلم لما طبعه من مساوئ عطلت مسار النماء الفكري والحضاري، (واستهلالنا يخص الفلسفة المسيحية). لكن ما يتوجب علينا إثارته ولفت النظر بشأنه أن كل الانتقادات والانتكاسات التي عهدها العقل في تلك العصور لا تلغي الأفق الآخر لتجليات العبقرية والتحدي المستميت لعقلانيات العصر لكل ما استتب بغرض تقويض نماء التفكير وتطور الأبحاث الفلسفية.

1 ــ 1 **الفلسفة المسيحية:** واجهت الفلسفة المسيحية مشكلة جد حاسمة في تاريخها الوسيط، وكان متنها الرئيس: هل توجد فلسفة مسيحية بالمدلول الفلسفي الحق؟ وهل يسعنا تأسيس فكر فلسفي مغمور بعقيدة لاهوتية (لا عقلانية) ولكنها ترتكز على سلطة الإيمان والعتقاد اللاهوتي لا غير؟ وإن أجزنا قيام فلسفة للعقل بمعية فكر ديني فأي منها يحكّم الآخر؟ . وهل تساؤلات وأسئلة الإنسان الوسيطي تجد ضالتها في العقل ام في النقل؟. هذه التساؤلات وأخرى أثارت استشكالات أسالت الحبر الكثير، وأبانت عن تعقيداتها وعسر التحكم فيها ببرهان أو حجاج أو بيّنة مشروعة ومؤسسة. "

فالفلسفة تقوم على العقل وحده بينما الدين يقوم على الإيمان، فهو يتنافى تماما مع ما تقضي به الفلسفة، فكان من الطبيعي أن تثار مشكلة إيجاد فلسفة مسيحية سواء في العصور الوسطى، وفي أي عصر كان. وقد أثار هذه المشكلة أحد رجال الدين أنفسهم: فنحن نشاهد أن كثيرا من رجال الدين المسيحي وعلى رأسهم القديس برنار والقديس بطرس دمياني يقولون إن الدين المسيحي ليس في حاجة مطلقا إلى الفلسفة لأن موضوع الدين المسيحي 'فكرة الخلاص' التي لا صلة لها بالفلسفة"[1]. كذا نشير على الفلسفة بالعقلي لا باللاعقلي نحو ما نشير للدين بالإيماني اللاعقلي، ولكنه قلبي روحي او اعتقادي دوغمائي يلزم العقل خضوعا وانصياعا لا نقاشا وجدالا نحو ما نعهده في الفلسفة. وعليه يكون من التناقض القول بفلسفة مسيحية لأنها حينئذ ستضحي لا عقلانية، ولأجل إزاحة التناقض المنطقي وجب الفصل بينهما، فإنه للدين كما للفلسفة مجالهما الخاص. يقول 'لودفيج فويرباخ' في هذا الصدد: ' إن من غير المعقول أن يتحدث الإنسان عن فلسفة مسيحية، كما أنه من غير المعقول أن يتحدث الإنسان عن كيمياء مسيحية أو فلك مسيحي أو علم مسيخي بالمعنى المحدود للمفهوم من كلمة 'علم"[2]. ويعتقد القديس أوغسطين أن الفلسفة المسيحية لا توجب تعارضا مطلقا بين الإيمان والتعقل ذلك لأن الإيمان وجد لخدمة العقل والعقل يستلهم رشده من الإيمان. وقد عبّر أوغسطين في مؤلفه 'مدينة الله' عن معادلة وصل العقل بالنقل سبقا وتقديما ضروريا قائلا: 'أؤمن من أجل أن أتعقّل' فالإيمان أولا ثم يأتي العقل بعد ذلك فيحل الشيء من حقيقة إيمانية إلى حقيقة برهانية، وهذه هي المهمة الحقيقية للفلسفة، فليس من مهمة الفلسفة أن تبحث لتؤمن أو تتعقّل لتعتقد، بل تعتقد لتتعقّل[3]. وقد نهج نهج أوغسطين القديس 'أنسلم' حين التزم بمسلمة آمن لتتعقل، حين عرض للمشكلة في مؤلفه: ' الإيمان الذي ينشد التعقل' خلاف ما قصد إليه توماس الإكويني إذ أبان عن الروح الفلسفية المجاوزة في حدودها لمقتضيات النصوص النقلية، وحينئذ كان شعار توماس الإكويني ابتدئ متعقلا لتنتهي مؤمنا. ولعل تلك تجلي الروح الفلسفية الحقيقية بنظره، لأنه تخلص العقل من تبعيته للإيمان الذي يتسلط على حرية الفكر والتأمل، الذي هو مرتكز المنهج الفلسفي الحق. وثمة

---

[1] ـ عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط12، 1969، ص 01.

[2] ـ المرجع نفسه، ص ص 01 ـ 02.

[3] ـ المرجع نفسه، ص 03.

قديسون آخرون كان لهم إسهام في تأسيس فلسفة مسيحية بينهم 'القديس بونافنتورا' و'القديس أبيلار' وغيرهم.

1 ــ 2 **الفلسفة الإسلامية:** إذا حق لنا رسم تأصيل جلي جامع مانع لفلسفة المسلمين منذ ما قبل العصر الوسيط قلنا إن القرآن الكريم أول تشريع لها، مستأنسين بسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لتليها مصادر التشريع الأخرى. ولا ريب أن المسلمين لم يختلفوا بشأن رد القضايا والمسائل الاتفاقية أو الخلافية إلى مصادر التشريع الأولى. بيد أن حركات تالية قامت في حضارة المسلمين حصل خلالها امتزاج ثقافاتهم بثقافات وعلوم الغرب الأوربي خاصة، لتتجسد في روافد الترجمة ومحاكاة نظرياتهم وأطروحاتهم، وذاك ما أثار الشكوك بشأن خطر الدخيل منها، إلى الأصيل، فانقسم المفكرون والفلاسفة والعلماء ملل ونحل ومذاهب شتى، أثيرت خلالها جدالات وسجالات لا حصر بين صناع الفكر والمعرفة نطالعها في متون مؤلفاتهم وأبحاثهم المختلفة. ولسنا بقاصرين تلخيصنا على عمقها وامتداداتها أو مقاصدها القريبة والبعيدة، ولكنا سنقصر كلامنا على تعريف القارئ بأصول الفلسفة الإسلامية من خلال الاطلاع على أبرز القضايا التي عرض لها الفلاسفة والعلماء المسلمين.

أ ــ الفلسفة وعلم الكلام: الأصل أن مواضيع الفلسفة الإسلامية مستوحاة من أصول الفلسفة الإسلامية لهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أولا، ثم ينظر باعتماد الأصول الأخرى والنص الشرعي حينها مقترن بالوحي، والوحي يقيني وثابت لا يطاله تخمين أو مراجعة أو إنكار، وعليه فإن الوحي ليس متروكا للفكر والتفكير ولكن للتسليم والإيمان به. ثم إن متون القرآن الكريم التي وردت في سوره بآياته المحكمات تضمنت أوامر ونواهي ودلت على الترغيب ة والترهيب، وعرفت الإنسان بحقيقة الحياتين الأولى والآخرة. ودعا الله سبحانه في آياته ورغب المسلم بالنظر في ملكوته وخلقه ليزداد علما ومعرفة وفقها واعتبارا، فكان لزاما عليه استخدام العقل. حينها اختلفت القراءات باختلاف الأصول والمصادر المعرفية، فإذا كان الفلاسفة قد جنحوا إلى العقلنة ورغبوا فيها اقتداء بغيرهم أيضا من الفلاسفة اليونان وغيرهم، فإن المتكلمين قيدوا اطروحاتهم بكلام الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وبذلك أسموا متكلمين. وعلم الكلام هو العلم الذي يستهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وسميت الأقوال التي تصاغ كتابة أو شفاها على نمط منطقي أو جدلي كلاما، ولا سيما تلك تعالج المسائل الاعتقادية، وقيل أنه العلم الذي يبحث في الاعتقادات كالتوحيد

والصفات. ولما كان كلام الله أبرز مسألة أثارها المتكلمون لهذا أطلق اسم 'الكلام' على مباحث إشارة إلى أشرف أجزائه وهو صفة 'الكلام الإلهي' وهي مسائل الأصول[4]. وللمتكلمين مناهج يعتمدونها مثل طريقة البرهانم الكلامي، وطريقة التأويل، وطريقة التفويض. وقد أثيرت بينهم مسائل خلافية ناهزت 25 مسألة، بلغت مبلغا من الجدال بين ابن رشد وأبو حامد الغزالي، ومكمن الجدال دال على حقيقة الصراع بين العقل والنقل، وقد اختلفت الفرق الإسلامية وانقسمت بشأنها مثل المعتزلة والشعرية والقدرية والجهمية وإخوان الصفا، والمرجئة والصابئة وغيرهم. وإذا كان الفلسفة المسلمون قد نهجوا نهج غيرهم من فلاسفة الغرب في النظر العقلي لمسائل ومشكلات الفلسفة وقد نقلوا عبر الترجمة علومهم ومنطقهم وفلسفاتهم، فإن المتكلمين أصلوا لعلمهم انطلاقا من الرسائل التي كتبت حول الزندقة والرد على أصحابها مثل مقالات أبي الحسن الأشعري التي عرض لها في كتابه 'الإبانة عن أصول الديانة' و 'مقالات الإسلاميين' وكتاب ' الفرق بين الفرق' لعبد القاهر البغدادي، وما تلاها من تعديلات مع أعمال ابن حزم والشهرستاني[5].

ب ـــ فلسفة التصوف*: يعتبر التصوف أحد أبرز التيارات الفكرية في الفلسفة الإسلامية، يتميز عن غيره من التيارات الفكرية الأخرى بشذوذ أفكار وآراء مؤسسيه ومؤيديه، لما له من حيد عن مقررات الدين والعلم فيما يدعونه الزهد في الحياة، والالتجاء إلى المعرفة الباطنية لإجلاء الحقيقة المرجوة. وقد تطور التصوف من سلوك الزهد والتنسك إلى القول بالمحبة والفناء والحلول، فالتأمل الفلسفي. وتمثلت المرحلة الفلسفية في حركته بمدرستين أساسيتين هما الإشراقية التي أسسها السهروردي (ت: 1191) والوجودية التي أرسى أسسها ابن عربي (ت: 1240)[6]. وترتد البدايات الأولى لنشأة الحركة الصوفية إلى القرن السابع الميلادي منذ عهد الخليفة 'عثمان بن عفان رضي الله عنه' وعرفت

---

[4] ـ محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000، ص 215.

[5] ـ حسن نافعة: تراث الإسلام، ج2، تر، حسين مؤنس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990، ص 49.

(*) ـ لعل ألفاظ 'التصوف' و 'الصوفي' من 'الصوف' الذي تميز الزهاد والنساك بلبس الخشن منه، وهناك أقوال مختلفة أخرى في اشتقاقها: من 'الصفة' وهي مقعد مغطى خارج المسجد الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ببنائه في المدينة، كان يأوي إليه بعض فقراء المسلمين ممن لم تكن لهم بيوت، من 'الصف' استنادا إلى القول بأن الصوفية كانوا أول الناس مجيئا إلى المسجد، فيشكلون الصف الأول من بين المؤمنين في الصلاة، وهم في الآخرة في الصف الأقرب إلى الله، من الصفاء أي الطهر الروحي، حيث صفا أهله من الشرور وأكدار الدنيا وشهواتها، من اليونانية 'سوفس' (توفيق سلوم: **الفلسفة العربية الإسلامية ـ الكلام والمشائية والتصوف** ـ دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 275).

[6] ـ توفيق سلوم: الفلسفة العربية الإسلامية ـ الكلام والمشائية والتصوف ـ ص 275.

الحركة نماء في أيام الأمويين (661 ــ 750) حيث شاع البدخ والترف وخاصة في الأوساط الحاكمة، وفي القرنين الثامن والتاسع اتخذت لها مراكز أخرى مثل العراق وخراسان ومصر[7]. وأبرز من اشتهر منهم بأطروحاتهم وأفكارهم السهروردي، الحلاج، ابن سبعين، محي الدين بن عربي، أبو حامد الغزالي، رابعة العدوية وغيرهم.

03/ تأصيل النشأة الحديثة والمعاصرة:

3 ــ1 الفلسفة الحديثة: اقترن ظهور الفلسفة الحديثة بعصر التنوير الذي سطع نجمه في أوربا، ومقتضاه يرتد إلى مطلبين رئيسيين: أولهما تحدي الكهنوت وبيان ضلاله وفظاعة تسلطه وقهره واستعباده للشعوب الأوربية لقرون، وثانيهما الدعوة إلى تحرير العقل من أشكال التبعية والخضوع وأسر الفكر الإنساني. وقد حمل لواء هذه الوثبات الثورية الجديدة فلاسفة التنوير بينهم يان هاوس، وكالفن، ومارتن لوثر وآخرون. وكان من نتائج هذه الثورات أن أبان العقل عن طاقاته الخلاقة في الإبداع والكشف النظري والعملي، فأنتج فلسفات مناهضة للتقليديات منها، وأرسوا دعائم فلسفة أكثر عصرنة ونجاعة منها العقلانية التي ترأسها ديكارت وكانت وهيغل وأخرون، والفلسفة التجريبية التي أرسى قواعدها فرنسيس بيكون وهيوم وغيرهم.

3 ــ 2 الفلسفة المعاصرة: تخطت عتبات الدوغمائية المفرطة في توهم اليقين والمطلقية والثبات، وجنحت إلى النسبوية المعتدلة، أهتمت الفلسفة كما العلم بجزئيات بحثية وأخرى جزيئية نحو ما بدا في الدراسات المنطقية والرياضية و الفيزيائية الذرية والبيولوجية والبيوتكنولوجية، ومتأخرا نتحدث عن جدة في مواضيع الطرح الإبستيمية الموصولة بثورات الذكاء الاصطناعي، وثورات المناهج المعاصرة. ولا ريب أن الفضل كل الفضل يرتد إلى أبحاث فلاسفة العلم ممن أبانوا عن ضرورة النقد والانفتاح الجاد على قضايا وشؤون العلم والفلسفة التي شأنها أن تعبد مسارات الدقة والموضوعية في البحث المعرفي المعاصر، ولا نستثني ثورات العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية التي نحت بالعقل الباحث إلى تخطي عقبات إبستيمية عديدة للسمو بها إلى مقام العلوم الرياضية والعلوم الفيزيائية والمنطقية.

---

[7] - المرجع نفسه، ص 277.

خاتمة: مهما خطت يدانا من خطابات موصولة بشأن تاريخ العلم والمعارف الإنسانية بوجه عام لا يسعنا الإلمام بها في مقام من المقامات الظرفية، ولكن مبتدأ يجب التعريف بمحطات الوثبات العقلانية الإنسية التي أبانت عن قدرتها على إحالة عوالم الجهل والخرافة إلى عوالم مستنيرة بنور العلم والفلسفة، وذاك ما استنتجناه من خلال دراستنا الوجيزة حول تأصيل البدايات والتاليات من حوارات الفكر العرفانية إذ حققت النماء والتقدم والتطور الباهر، إذ مكن الإنسانية من الخلاص لعديد أزماتها ومشكلاتها.